قراءة في قصة قصيرة

بقلم أبو المعاطى أبو النجا

أهمية هذه القصة القصيرة «في الليل تأتي العيون» لليلى العثمان في تقديري تنبع من أنها مشدودة من أول سطر فيها لآخره على تلك الشعرة الرقيقة التي تمتد بين عالم الواقع وعالم الأسطورة. في عالم الواقع يتردد «عثمان» على المسجد للاستماع إلى دروس «السيد»، عثمان صبي على مشارف المراهقة يملك من الأسئلة أكثر مما يملك من الأجوبة. في داخله لا تزال تعيش وتنبض أساطير الطفولة التي امتصها من بيئة تشي رموزها في القصة بمدى بدائيتها وبساطتها، وأخطر هذه الأساطير ما يتصل بعالم الجن ومدى صلته بعالم الإنس، ولكن الواقع نفسه يشق طريقه إلى عقل الفتى عبر حواس يقظة مرهفة تستند إلى مشاعر الحياة القوية في أوج تفتحها وازدهارها.

«السيد» وهذا هو اسمه أوصفته رجل دين خير، طيب، قادم إلى بلدة هذا الصبي من «أزمير»، مع أن ماضيه الذي تركه خلفه في بلده البعيد يحيطه بجو أسطوري إلا أنه دخل في واقع البلدة من أوسع أبوابه. لقد أحبه الصغار قبل الكبار لأنه يحسن الاستماع إلى الجميع، ولأنه لا يلقي عليهم بمواعظه، بل يتركهم يسألون ليجيب على تساؤلاتهم، ربما لا يجدون - وبخاصة عثمان - شفاء في كل أجوبته، ولكن طريقته نفسها تشدهم إليه، لقد أحبوه إلى حد الخوف من أن يتركهم يوماً ويعود إلى بلده البعيد، وعالجوا خوفهم هذا بأن زوجوه إحدى بنات الأسر الطيبة في بلدتهم ليضمنوا بقاءه معهم!

حين يسأل عثمان هذا «السيد» سؤالاً يؤرقه:

- هل حقاً يخرج الجن في الليل؟

يجيبه السيد الذي نصفه واقع ونصفه أسطورة على سؤال لم يسأله...

- «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

لم يكن لدى عثمان أدنى شك في وجود الجن ولا في حكمة الله من وجودهم ولكنه كان يخشى أن يعترض بعضهم طريقه أثناء عودته من منزل السيد الذي يحبه ويحب أن يبقى معه بعد صلاة العشاء وبعد أن ينصرف الجميع، فطالما حذره أبوه وأمه من مثل هذا التأخير، وطالما طلبوا منه أن يسلك الطرق التي لا تخلو من عابر سبيل مهما طالت وامتدت، فالجنيات لا تخرج إلا في الطرق الضيقة والمظلمة، والتي تخلو من المارة!

كأن الهواتف الغامضة التي تشد عثمان إلى السيد هي نفسها التي شدته في تلك الليلة إلى أن يسلك الطريق الضيق الذي يكتنفه الظلام أثناء عودته إلى بيته! كأنما أراد أن يتوجه بسؤاله إلى الواقع نفسه لعله يجد لديه جواباً أفضل على هواتفه الغامضة. سار سيراً ناعماً حتى لا يشعر به أحد، سمع من خلفه شيئاً كالصدى، أبطأ فأبطأ الصدى... توقف فسكن الصدى، عاود السير فعاد ما كان يظنه صدى، كان في هذه المرة صوتاً مثل صوت قدميه حين استجمع قواه في نظرة قوية إلى الخلف، رآها طفلة في مثل سنه، الظلام الذي ألفته عيناه لم يستطع هذه المرة

أن يخفي الحقيقة، الصوت والصورة، ماذا بقي له؟ كانت أمه تقول له:

- «إن الجنيات يتشكلن في كل الصور، يعشقن الفتيان أمثالك، ولا تتورع الواحدة منهن من أن تجذب من يثيرها حسنه وجماله إلى عالمهن، تنشق الأرض وتسحبه، فلا يعود أو إذا عاد فإنه يظل مسكوناً» الرعب يفترسه ولكنه لا يمنعه ولا يمنعها من مواصلة السير خلفه عبر الأزقة المظلمة لعله يصل إلى عالم أكثر واقعية لو وصل إلى بيت أبيه سالماً فسوف تختفي فجأة كما ظهرت فجأة [كأن في داخله شيئاً ينكر وجود الأسطورة] السباق بين الواقع والأسطورة على أشده، يسير فتسير، يجري فتجري، يقف فتقف، ذلك التوازن المرعب بين الواقع والأسطورة يكاد يسحقه سحقاً، يصل إلى بيته، حجرة أبيه مضاءة لا تزال، لا ينام أبداً قبل عودته، يوشك الكابوس أن ينقشع، يطرق الباب، يفتحه أبوه، وفي يده مصباح صغير، يكاد يلقي بنفسه بين ذراعيه، لكنه لن يستسلم قبل أن يصفق الباب في وجهها!! لكنها الفتاة الجنية تمنعه... تمد يدها لتبقي الباب مفتوحاً لتدلف منه، من خلفه، يبقى الباب مفتوحاً بين عالمين: الواقع والأسطورة، وكأن الأسطورة تجتاز أصعب الموانع والاختبارات..! ولا تزال قادرة على التحدي! تطلع إلى وجه أبيه لعله يفهم شيئاً، وجده ممتقعاً، سمعه يهمس:

- قلت لك ولم تصدقني!

أعتى المواقع ينهار، الجنيات لا توجد فقط في الأزقة المظلمة، وحين تنقطع القدم، السباق لم يعد بينه وحده وبينها، الجميع يدخلون السباق، ولعلها لم تدخل من باب البيت وحده، أبوه يستجمع صوته ويقول له:

- إذهب يا عثمان... أيقظ أختك... لعل البنية جائعة أطعموها... وجهزوا لها مكاناً لتنام! أخته الصغرى تواجه التجربة نفسها برعب أشد، لم يعد قادراً على التفرس في وجه الفتاة الجنية التي سارت خلفه، فهو يراها في وجوه أفراد الأسرة رعباً وهلعاً... ولكن هذا الرعب الكاسح لم يمنعهم من أن يقدموا لها حليباً لتشربه، تلعق اللبن بطريقة تشير إلى مدى جوعها أو عطشها، الجنيات يعرفن الجوع والعطش وليس الحب فقط، ويعرفن التبول أيضاً، فبعد أن شربت الفتاة أفرغت ما في معدتها في المكان نفسه بطريقة تؤكد انتماءها إلى عالم الجن أو عالم الإنس لم يعد يدري!! خوف أخته الصغرى يستنفر في أعماقه شيئاً بعد أن خذله خوف أبيه أو يقينه الراسخ لم يعد يدري!!

يشعر أن من واجبه أن يطمئن أخته الصغرى التي طلبت منه ألا يتركها وحدها مع هذه الجنية! لا يدري من أي مكان في عقله جاءت هذه الفكرة. وجد نفسه يقول لأخته ودون أن يصدق نفسه:

- لا تخافي إنما هذه مجرد طفلة ضالة!

- لا... إنها عجيبة... غريبة الوجه...

- لا تخافي... قلت لا تخافي... نامي بعيدة عنها في الصباح سنبحث عن أهلها!

أكان يطمئن نفسه أم يطمئن شقيقته..؟

ويبقى كل شيء مشدوداً على هذا الخيط الرفيع بين الواقع والأسطورة... فالأسطورة في تلك الليلة كانت تتغذى على أشياء كثيرة غير الحليب، أشياء قديمة قدم الليل والنهار، والخوف والأسى والجوع والضياع!!

★ ★ ★

في الصباح قال له أبوه:

- عثمان... قُمْ صل الفجر... ثم خذ هذه البنية، سر معها... أعدها إلى المكان الذي لقيتها فيه. في ضوء الفجر. خرج معها عثمان... سار أمامها إلى المكان نفسه الذي لقيها فيه... كان يسأل نفسه «- أحادثها... أسألها؟ أزجرها؟ أهرب منها؟ ترددت أكثر من مرة وخطواتها المنتظمة لا تزال ورائي توقفت... توقفت... مشيت... مشت... قطعت السوق المسقوف... انحرفت إلى [براحة الزهاميل] من هنا بدأ الخطو ورائي... وحتى هنا كانت خطواتها منتظمة، وحين التفت وراءه كانت رفيقته كقطرة الماء التي شربتها الأرض..!»

وهكذا قامت الأسطورة بدورها المتعدد الوجوه في تخليص المجتمع، من شعوره بالمسئولية حيال طفلة ضالة تقف على الحدود المشتركة بين الإنسان والحيوان والعقل والجنون، وفي جعل الآباء يحكمون سيطرتهم على أبنائهم وفي تماسك الجماعة، وفي ما لا يتسع المجال لذكره..!

إن قيمة هذه القصة لا تتمثل فقط في ذلك النسيج الرقيق الذي يمزج بين خيوط الواقع وخيوط الأسطورة، ولا في تلك الجدة التي تتمثل في عرض مشكلة قديمة [طفلة مشردة ضالة] من منظور جديد مؤثر، ولكنها تتمثل أيضاً في تلك النبضة القوية التي تؤكد قدرة العقل الفتي على مواجهة تحديات الأسطورة..! فحين روى عثمان القصة للسيد وانتظر منه إجابة تشفي الغليل... اكتفى كعادته بأن يجيب على سؤال آخر وقال له:

- لا تسهر كثيراً... وعد إلى بيتك مع إخوتك.

يقول عثمان في نهاية القصة:

«منذ ذلك اليوم... قررت ألا أسهر عنده!!

إن ليلي العثمان في هذه القصة القصيرة* المليئة بالشجن والعنفوان والخوف والبساطة تعثر على منجم في بيئتها الغنية. ليتها تواصل البحث عن مصادر جديدة للثروة الفكرية في البيئة نفسها.

* من مجموعة بالعنوان نفسه صدرت أخيراً عن دار الآداب